

الرقابة الإلهية



يقول [] تعالى في كتابه المجيد: (وَكَانَ [] عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا) (الأحزاب / 52) و(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) (غافر / 19). هذه الآيات الكريمة وغيرها، توحى للإنسان المؤمن أن تفكيره وعقله وطاقاته في حياته، يجب أن يكون على أساس حقيقة إيمانية، وهي رقابة [] عليه في كلِّ ذلك، إنَّكَ ربُّمَا تستطيع وأنت تفكر أن تخفي ما في فكرك عن الناس كلَّهم، سواء كان فكرك فكر الخير أو الشرِّ، وتستطيع أن تخفي مشاعرك وأحاسيسك عن الناس كلَّهم، وأن تخفي كلماتك عندما تهمس بها أو تسرُّها لبعض الناس لأنَّكَ تملك ذلك كلَّه، فهناك غطاء للفكر وللعاطفة ولما يصدر عن الإنسان من قول وفعل ممَّا يملكه الإنسان من الوسائل. ولكنَّكَ لا تملك أن تخفي شيئاً عن ربِّكَ، فأنت مكشوف بكلِّك عليه، إنَّكَ تجلس وحدك لتفكر بشرٍِّ ضدَّ أُناس أو واقع، أو بخير، وأنت مطمئن أنَّه لن يطَّلِع أحد على ما تخطُّط له وما تفكَّر فيه، ولكنَّ [] تعالى يلاحق فكرك منذ أن تبدأ الفكرة، وحتى تنضجها وتنتجها، فإنَّها في نظر [] وعلمه، لأنَّ [] (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ). وعلى هذا، فإنَّ على الإنسان أن يربِّي نفسه على أنَّه مراقب في كلِّ أعماله وأسراره وخفاياه، فلا يشعر بالأمان والاطمئنان، ويأخذ حرِّيته في التخطيط لهتك حُرمة الآخرين، أو النيل من كرامته وماله وعرضه: (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ [] وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ [] بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) (النِّسَاء / 108).

الإسلام سعى لتقوية عنصر الرقابة الذاتية لدى الإنسان المسلم، وهذا العنصر هو من أقوى ما يمكن أن يشكل ضماناً لعدم اختراق القانون، لأنَّ الإنسان الذي لا يمكنه أن يخفي عن نفسه ارتكابه للإثم أو مخالفته للشرع، وإن أمكنه أن يخفي ذلك عن الناس، أو أن ينسى [] عزَّ وجلَّ في لحظة من اللحظات، لن يُقدم على المخالفة وارتكاب الذنب. يقول الإمام عليّ (عليه السلام): «اجعل من نفسك على نفسك رقيباً واجعل لآخرتك من دنياك نصيباً». وعنه (عليه السلام): «رَحِمَ [] عبداً راقب ذنبيه وخاف ربَّه». هذه الرقابة الإلهية حينما يشعر بها الإنسان ويؤمن بها تحدث لديه حالة من الخوف من مخالفة القانون وتخلق عنده حالة من الفرع من [] سبحانه عندما يخالف شريعته وقانونه وبالتالي تنشأ عنده مَلَكة التقوى كما عرَّفنا الامام الصادق (عليه السلام): «أن لا يفقدك حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك». ويقول

أيضاً (عليه السلام): «خف □ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت ترى أنه يراك ثم برزت إليه بالمعصية فقد جعلته أهون الناظرين إليك». بناء الإنسان المؤمن إذن يبدأ من التقوى ويزول إيمانه بزوالها وعليه يتوقف بناء المجتمع الفاضل الذي عبّر عنه القرآن الكريم: (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (آل عمران/ 110)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا □ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي مَتَاعِكُمْ مَتَاعَ الَّذِينَ كَفَرُوا □ إِنِّي أَخَذْتُ بِالصِّبْيَةِ بِمِمَّا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا □ فَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْغَمَّةَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) (الحشر/ 20-18).

نحن في الصوم نمتنع طوعاً واختياراً من مفرطات هي ضرورات قريبة منّا ولصيقة بنا من أكل وشرب وهي محللة لنا وبالإمكان أن نتناولها بعيداً عن أعين الناس ولكن لم نفعل لأننا نشعر بالرقابة الإلهية، نمسك عنها تفرُّباً □، هذا الشعور يولّد «التقوى» التي فيها يستوي باطن الإنسان وظاهره في الاستجابة لمنهج □ والالتزام الصادق المخلص لكل ما يدعونا إليه هذا المنهج فيصبح «الإنسان المتقي» مودّد الشخصية لا تجد الازدواجية إليه سبيلاً. لأنّ الصوم حكمة تشريعية للوصول إلى درجة التقوى، يقول □ تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة/ 183).